هموم المدينة

مقدمات لقراءة رواية "صباح ويزحف الليل" لعبد الكريم غلاب

بقلم: رشيد بناني*

1 – مقدمات عامة:

1–1– صدرت الطبعة الأولى من رواية (صباح ويزحف الليل) للأستاذ عبد الكريم غلاب، عن (دار الآداب) في بيروت سنة 1984، أثناء مرحلة تاريخية صعبة عاشها المغاربة وأطلقوا عليها فيما بعد اسم (**سنوات الرصاص**)، وهي مرحلة عرف المغرب خلالها قدرا كبيرا من الاحتقان السياسي والصراع المضطرم بين السلطة الحاكمة من جهة، وأحزاب المعارضة الوطنية من جهة أخرى(1).

والملاحظ أن هذه الرواية لم تحظ، عند صدورها، بمثل ما حظيت به قصص وروايات وأبحاث المؤلف السابقة من التحليل المتفحص والدراسة المتأنية أو المحتدمة؛ ونعتقد أن الدارسين قد تهيبوا مقاربتها نظرا لعدد من الأسباب، نذكر من بينها:

أ– أن الرواية كانت، لدى صدورها، تتعرض لفترة قريبة وحساسة في تاريخ المغرب المعاصر، وربما لم تكن تلك الفترة قد طويت تماما؛ فقد تناول المؤلف أحد أهم التحولات السياسية والاجتماعية التي عرفتها بلاده بعد حصولها على الاستقلال عن فرنسا سنة 1956، وعرض بعض ما مهد لهذه التحولات وصاحبها من ألوان الرأي السياسي الرائجة لدى بعض الشرائح الفاعلة في المجتمع، كما صور بعض ساعات السرور وكثيرا من ألوان المأساة والخلاف التي قادت البلاد إلى عدد من الانتفاضات الشعبية، كما أدت إلى انقلابين عسكريين فاشلين سنة 1971 ثم سنة 1972، وكذا إلى محاكمة طالت، في نهاية سنة 1972، عددا من الوزراء وبعض كبار موظفي الإدارة ورجال الأعمال المتهمين بالفساد. إن هذا الموضوع كان يخلق عند صدور الرواية، بدون شك، كثيرا من الحرج بالنسبة لكل من القارئ والدارس؛ لأن مشاكل المرحلة وبعض أسمائها ورموزها وممارساتها السياسية كانت، عند صدور الرواية، ما تزال ماثلة وممتدة بقوة في الواقع المعيشي خلال ثمانينيات القرن الماضي، لذلك فإن دراسة

هذه الرواية أو الكتابة عنها، لو تمت وقتها، فإنها لن تخلو ـــ في الغالب ـــ من بعض المواقف المتلونة بحساسيات الحقبة، ولن تتحلى ـــ بالتالي ـــ بكل الموضوعية والشفافية التي تفترضهما الدراسة العلمية.

ب– أن الكاتب لم يكن يسهب في ذكر الأحداث العامة في روايته، وإنما كان يكتفي، في معظم إحالاتها إلى الواقع التاريخي، بالتلميح والإيحاء ورسم بعض المشاهد المتفرقة التي تدل على المكان والحقبة والتركيبة النفسية والثقافية لشخصيات عايشها، مغلبا دوافعه الإبداعية، وتاركا أمر ربطها بمجريات الواقع التاريخي للقارئ المطلع النبيه.

ج–يوظف المؤلف، في بناء هذا العمل، بعض تقنيات السرد الحديثة التي يتولد عنها التركيب والتكثيف وصعوبة القراءة؛ مثل الانتقال السريع والمتكرر بين الماضي والحاضر، عن طريق التذكر والاسترجاع؛ ومثل خلط عناصر الحدث بأحلام عدد من الشخصيات ورؤاها، وبالتهيؤات النفسية وهلوسات السكر التي تعتريها، وعن طريق تصوير حواراتها الداخلية وأحلامها وأحلام يقظتها المتكررة والمتقطعة، والشديدة القصر والتركيز أحيانا...

د–يمتزج السرد في هذه الرواية بعناصر الخطاب الشعري التصويري المناور، والاستعمال المتكرر للأمثولة وغيرها من ألوان التصوير المجازي والتعبير الرمزي التي لا تراد لذاتها، وإنما يتوسل بها المبدع نظرا لأنواع الشحنات النفسية والجمالية والدلالات الحافة التي تسمح بتوالدها... وقد يكتفي أحيانا ببعض هذه الأمثولات أو الرموز ويجعلها مقاطع داخلة في بناء الحدث ومساهمة في اكتمال تدفق السرد، تاركا أمر فهمها وتأويلها وربطها بسياقها للقارئ.

كل هذا يقتضي من قارئ (صباح ويزحف الليل)، يقظة في الذهن وانتباها قويا؛ وكفاءة في القدرات القرائية ومعرفة بتقنيات الكتابة الروائية الجديدة؛ علاوة على معرفة كافية بعدد من تفاصيل تاريخ المغرب المعاصر الذي تحيل عليه أحداث الرواية وتلميحات صاحبها؛ ودراية بالمواقف السياسية التي تبناها عبد الكريم غلاب (ومواقف القوة السياسية التي ينتمي إليها) من هذه التفاصيل، ومن حوادث تاريخ الحقبة المحيطة بها.

وتبقى رواية (صباح ويزحف الليل)، رغم كل ذلك (أو بسببه)، واحدة من الأعمال السردية المغربية الهامة والجديرة بالدراسة، نظرا:

أ–لتشكيلها حلقة من الحلقات التي خصصها المؤلف، ضمن نشاطه الأدبي ونضاله السياسي الملتزم، لرسم معالم حقبة معينة كان شاهدا عليها، من حقب تاريخ المغرب المعاصر وبناء دولته الحديثة.

ب–لكونها ترسم معالم تطور واضح وتحول نوعي في الأسلوب الروائي الذي أبدعه غلاب وتشبع فيه بعدد من تقنيات الحداثة.

1–2–من المعلوم أن النص ـــ أي نص ـــ ليس مجرد تتابع للعلامات، ولكنه يملك نظاما داخليا خاصا به يضمن له تماسكه وقدرته التواصلية؛ على أن لكل نص فني جدير بهذا الاسم من الخصوصيات الذاتية ما يترجم تجربة صاحبه الإبداعية وإضافاته إلى التجربة الأدبية العامة؛ وأكيد أن الجهود الإبداعية للأستاذ عبد الكريم غلاب قد أضافت، من خلال هذه الرواية، ما أضافته إلى الكتابة الروائية المغربية والعربية، وذلك ما سنحاول مقاربة بعض جوانبه في هذا البحث.

أ–تتألف رواية (صباح ويزحف الليل) من24 فصلا؛ ويتوازى تسلسل هذا الفضاء النصي مع التسلسل الكرونولوجي للخيط الأساسي للحكاية، غير أن هذا الخيط تقطعه باستمرار لحظات التذكر وربط الحاضر بالماضي لإنارته وإبرام الروابط معه، مما يخلق نوعا من التداخل الذي يشحن اللحظة السردية ويمنحها كثافة ملحوظة. ويقوم بسرد هذه الحكاية سارد واحد خارجي مطلع (يرى من فوق)، ويحلو لهذا السارد أن يتوقف بين الفينة والأخرى ليسترسل في تأملات تعلق على الحوادث وتحاول أن تفسرها أو تقرب القارئ من إحدى زوايا النظر ـــ السياسية على الخصوص ـــ إليها؛ وتتخذ تعاليق السارد وتأملاته، تارة طابع اللغة الشعرية، وتتخذ تارة أخرى طابع الحكاية الأليغورية (الأمثولة)، كما يتضح ذلك من خلال القراءة المفصلة للنص.

تجري أحداث هذه الحكاية بين فاس والرباط، محايثة بذلك الانتقال التاريخي للقوى السياسية التي كان المؤلف شاهدا على نشاطها بين هاتين المدينتين، وانتقالها التدريجي بعد الاستقلال من الأولى نحو الثانية؛ كما تحيلنا الرواية على فضاءات مكانية أخرى، إذ تنقلنا ذاكرة الشخصيات عامة إلى أيام دراسة البطل ـــ وزملائه ـــ في مدارس باريس العليا؛ كما تنقلنا الإحالات الخارجية على وقائع مغربية عامة، اجتماعية وسياسية على الخصوص، تجري في مكناس أو سيدي قاسم أو الدر البيضاء أو في الضيعات الفلاحية في الغرب المغربي...

ب– رصد المؤلف في مضمون هذه الرواية عددا من التحولات التي عرفتها بلاده مباشرة بعد تحررها الأول من السيطرة الاستعمارية الفرنسية المباشرة (سنة 1956)، كما صور بعض جهود أبناء المغرب وطبقته السياسية، وتعثراتهم الأولى خلال قيامهم ببناء دولتهم المستقلة بأنفسهم. وقد ركز غلاب في روايته–موضوع دراستنا– على عدد من مجريات وهموم العقدين الأولين اللذين أعقبا مباشرة استقلال

المغرب (1956– 1972)، متأملا في هذه المجريات من زاوية نظر ملتزمة بالرؤية الوطنية المهيمنة على مواقفه، ومتشبعة بقناعاته السياسية التي عبر عنها في مختلف مؤلفاته.

ولعل من المعلوم أن تيار الحركة الوطنية الذي ينتمي إليه عبد الكريم غلاب قد كان يراهن، بعد استقلال المغرب من الاستعمار الأجنبي، على مشاركة واسعة للقوى الوطنية في الحكم، تضمن لهم حرية كافية تمكنهم من إجراء الإصلاحات الضرورية في بلادهم، وإعطاء الاستقلال مضمونه الحقيقي الذي كافحوا من أجله. غير أن التجارب المتكررة التي خاضها المغاربة، منذ فجر الاستقلال، أظهرت صعوبات إقامة الحكم الديمقراطي الذي يعمم الفائدة ويتيح القيام بكل الإصلاحات المأمولة، نظرا للتبعية للقوى الاستعمارية التي بقيت مسيطرة على البلاد، والحكم المطلق الذي أخذ يترسخ فيها سنة بعد أخرى(2). إن فعالية الأحزاب السياسية التي قادت عملية تحرير البلاد قد تم تعطيلها تدريجيا، خلال هذه المرحلة، وتم إبعاد الأطر المنتمية إلى هذه الأحزاب عن المسؤولية خلال جزء مهم من العقدين المذكورين وتعويضهم بأطر من التقنوقراطية اللامنتمية سياسيا والمسايرة لتوجهات النظام السائد، فكان لهذا الإبعاد السياسي المقصود آثاره المحزنة على مكانة الشعب، وعلى معيشته، وعلى دور النخبة السياسية التي يسندها المواطن، ومن ثم على استقرار البلاد؛ وهذا ما ركزت عليه الرواية، وربما لأجل ذلك اختار لها عبد الكريم غلاب عنوانا يشي بالاهتمام بالزمن، كما تغلفه غلالة من الحسرة والأسف على ما آل إليه هذا الزمن البكر.

2 ــ العنوان كمقدمة للقراءة :

2 ــ 1 ــ تعد (**صباح ويزحف الليل**) ثاني روايات الأستاذ عبد الكريم غلاب التي اختار لها عنوانا يعتني بالزمن؛ وكان قد سبق له الاهتمام بهذا العنصر في رواية (**دفنا الماضي**) (1975)، وهي ملحمته الجميلة التي تحتفي بزمن الكفاح المؤسس لاستقلال البلاد وجهاد رجال الحركة الوطنية من أجل حرية المغرب. ويحيل هذا العنوان على مقطع من الرواية يتجاوب فيه صوتان، أحدهما يدعو إلى دفن الماضي ونسيانه، والثاني يخالفه ليقرر أن معركة بناء المستقبل ما تزال قائمة لإرساء أسس ممارسة هذا الاستقلال. إن عنوان هذا العمل الأول يوحي بأجواء النضال الضاري والذكي الذي خاضه الوطنيون المغاربة خلال مرحلة خضوعهم للاستعمار الفرنسي (1912 ــ 1956)، ويفصح عن نشوة انتصار واثقة في قيمة هذا النضال الذي كلل بالحصول على الحرية، ويدعو إلى دفن هذا الماضي القريب الذي تمنى أن يكون قد انتهى، بكل شروره ومعاناته تحت نير السلطة الأجنبية، كما يدعو إلى استقبال زمن جديد

كافحت القوى الوطنية بمرارة من أجل دخوله، وهو زمن يستمر فيه النضال من خلال انخراط الجميع في بناء دولة يتمناها المؤلف خالصة لأهلها.

في "**صباح ويزحف الليل**" نصادف نفس العناية بالزمن، ولكن بطريقة مختلفة؛ إن ذكر الزمن في عنوان هذه الرواية لم يعد مشوبا بالتعبير عن نشوة الانتصار والاحتفاء بنتائجه، ولا عن حماسة الإحراز على الاستقلال والشوق لممارسته في ظل الثقة في المستقبل، كما هو الحال في العنوان السابق؛ وإنما تشوب دلالات العنوان الجديد ظلال الخيبة ومرارة الفشل في تخطي الصعوبات المبكرة الناجمة عن ممارسة المغاربة لهذا الاستقلال نفسه، ومكابدات الكبوات الأولى التي عرفتها البلاد خلال العقدين اللاحقين على تحمل أبناء المغرب مسؤولية تدبير شؤون بلادهم بأنفسهم، وإن كان طعم الخيبة يخالطه شعور المفاجأة غير السارة، تليه الثقة في إمكانية الإصلاح؛ وذلك ما يتبدى من خلال فحص هذا العنوان.

2-2- اشتهر الأستاذ عبد الكريم غلاب، في قصصه ورواياته الأولى، بسرد واقعي شفاف واهتمام بإبراز خصوصيات موضوعية للحقبة التي يرصدها؛ لكنه، في رواية (**صباح ويزحف الليل**)، يفصح عن توجه جديد في طريقة صياغة المكتوب الروائي، وذلك ما يتجلى منذ عتبة النص الأولى، أي عنوانه. إن كتابته الشفافة الناصعة قد عوضها نزوع نحو الاختزال والتلميح وتوظيف بلاغة الصورة وتوتر التعبير واغتنائه بعدد من أشكال الانزياح والترميز وتعدد الإيحاءات، مما يشعرنا منذ البداية بتوجه جديد في السرد يدخل بنية الخطاب الشعري ويمنحها مكانة بارزة في تعبير الأستاذ عبد الكريم غلاب الروائي، ويجعل المؤلف في طليعة الروائيين المجددين الذين حفل بهم عقد الثمانينات.

فمن المعلوم أن الرواية العربية قد حققت، في عدد من نماذجها المجددة في تلك الفترة، نزوعا واضحا نحو ما سماه الدارسون تلاقحا بين الشعري والروائي: "فهي من حيث الحكاية والشخصية والمكان والزمان تعد روايات، أما من جهة اللغة فهي تستخدم أساليب الشعر"(3).

ويتبدى هذا التوظيف لتقنيات اللغة الشعرية في هذه الرواية منذ عتبتها الأولى؛ (4) إن المتأمل في عنوانها يجده تركيبا لا يفضي بأسراره بسهولة؛ فهو يتسم بشحنة شعرية واضحة، وببؤرة تعبيرية شديدة التوتر، وبدلالات مجازية متعددة لا تفضي بأسرارها بسهولة، ولكنها تحتاج إلى اطلاع على تفرعات الحكي في الرواية وما تولده في نفس القارئ من تعجب وحيرة وحسرة لا تخلو من أمل قابل للتجديد.

إن هذا العنوان عبارة عن جملة تتكون من عنصرين يجمع بينهما حرف الواو (صباح + و + يزحف الليل)؛ وهو نفسه تركيب غير مألوف في الفصاحة العربية التقليدية التي لا تبيح لنا عطف تركيب فعلي على آخر اسمي؛ وربما يعود ذلك التجاوز إلى كون العنوان مقتبسا من اللغة المحكية (الدارجة المعربة) على لسان إحدى شخصيات الرواية، أو ربما أمكننا فهمه أيضا على ضوء رغبة المؤلف في تطوير كفايات لغته الروائية والإتيان فيها بالجديد المبتكر.

غير أن الواو في هذا العنوان لا تفيد الجمع وحده بين عنصري التركيب، أو الدلالة على الحال عند هذا الاجتماع، ولكنها تفيد معاني أخرى ناشئة عن هذا الاجتماع بين الصباح وأحواله الغريبة. إن البحث عن هذه المعاني داخل متن الرواية هو الذي يجعل العنوان يبوح بعدد من أسراره ويرشح ببعض معانيه.

إن هذا العنوان، من حيث الدلالة، يختزن قدرا واضحا من التضاد المولد للحيرة وقابلية نسج التأويلات؛ ولكنه تضاد لم يأت اعتباطا وإنما أتى ليعكس طبيعة زمن الرواية نفسه المتسم بالمفارقات العجيبة والمفجعة؛ ولا شك أن المؤلف قد اختار هذا العنوان بالذات لتحفيز المتلقي للدخول إلى عالم النص والغوص فيه بحثا عن هذا الغائب الحاضر (الزمان الروائي) ومحاولة كشف تناقضاته وقضاياه التي أراد المؤلف بسطها والإقناع بها.

ومما تجدر ملاحظته أن مقاطع الحكي التي يحيل عليها عنوان هذه الرواية هما الفصل التاسع عشر ثم الفصل الثاني والعشرون، وهما معا من الفصول الختامية التي يمكن اعتبارها بمثابة تعاليق على الأحداث التي بسطتها الرواية واستنتاجات يستخرجها المؤلف منها وعبر يدعو القارئ إلى استخلاصها؛ وبذلك يجوز لنا القول من جديد بأن عبد الكريم غلاب ليس فقط كاتبا صاحب قضية يدافع عنها في روايته، ويستنتج، في نهاية الرواية، النتائج المترتبة عن المقدمات التي رسمتها الفصول المتقدمة؛ وإنما يمكن القول بالإضافة إلى ذلك إنه يبوئ هذه الاستنتاجات مكانة الصدارة، حين ينص عليها في عنوان عمله، ويجعلها بوابة لقراءة روايته.

2–3- "صباح ويزحف الليل" عنوان متعدد الدلالات؛ منها الدلالات القريبة الملموسة، ومنها البعيدة التي يسمح بها التأويل وحده؛ ويمكن ترتيب هذه الدلالات، على الأقل، وفق المتسويات الثلاثة التالية:

أ ــ المعنى القريب للعنوان، ويخص مستوى الحدث الطبيعي وتلقيه الاجتماعي؛ حين تكسف الشمس عن البلاد ذات ضحى خريفي خلال بداية سبعينيات القرن 20 (وهي حادثة طبيعية حقيقية التقطها المؤلف ووظفها فنيا)، فتعبر إحدى الشخصيات الشعبية في الرواية عن عجبها وخوفها من زحف الليل

في بداية الصباح، وعن إدراكها الخرافي لهذه الظاهرة المفاجئة والمنذرة في نظرها بالشؤم : "انفلقت الشمس بسيف قاطع أسود نزل عليها من السماء السابعة حتى إذا اقترب منها بدا كنصلة حادة من جهنم. قسمها قسمين... كان الوقت ضحى فزحف المساء"،(فصل 19، ص 184)(5).

ولا نشك في أن المؤلف، حين يلح على خوف الناس من الكسوف وعلى إدراكهم الخرافي له، فإنما يريد التلميح إلى أن الأمية والجهل ما زالا متمكنين من عامة الشعب، رغم مرور قرابة عقدين على استقلال البلاد وعلى انتقال تدبير شؤونها إلى المغاربة بأنفسهم.

وسيتكرر معنى اجتماع الصباح مع الليل، بطريقة أخرى، حين يظلم مكتب قاسم (بطل الرواية والإطار التقنوقراطي الذي أسندت إليه مسؤولية إدارية سامية فاستغلها للإثراء غير المشروع) في عز الضحى بسبب الكسوف: "أظلمت غرفة المكتب، لا يدري، أمن دخان السيجار أم من زحف الليل في عز الضحى؟" (ف 22، ص 218).

ب-الدلالة المجازية: إن الدلالة في الحالتين السابقتين، تعيينية مباشرة تحيل على الانحسار الطبيعي لنور الشمس عن الأرض وجزع الناس منه؛ إلا أنها تحتمل، في النموذج الثاني، استعمالا مجازيا لكلمة (الليل)، واستعارتها لقصد ظلام الكسوف (كمعنى قريب)، ثم لكسوف مؤسسة الإدارة المغربية نفسها وفشلها المبكر في تدبير المسؤولية العامة ومصالح الناس المسندة إليها (كدلالة بعيدة مقصودة أيضا بدون شك)؛ لاسيما أن ظلام المكتب قد ازداد بفعل دخان السيجار (علامة البذخ والابتعاد عن هموم الشعب) الذي يملأ المكتب، كما مازجه ضيق شعر به قاسم نفسه ورغبة في الخروج من مكتبه لاستنشاق الهواء النقي الموجود في الخارج: "نظرة أخرى ألقاها على ركام الملفات. شعر بالحاجة إلى أن يملأ رئتيه بنفس أعمق مما تتيحه الغرفة. انطلق لا يلوي على شيء". (فصل 22، ص 218).

ج- مستوى مجازي أوسع، ويعني الحقبة الأولى من تاريخ المغرب المستقل، حيث إن التعجب من طرف الشخصية الشعبية المشار إليها أعلاه والهلع الذي تظهره هذه الشخصية (فصل 19)، أو إظلام مكاتب الإدارة (فصل 22)، يكتسبان معنى بعيدا لا يتوقف عند كسوف الشمس وانحسار نورها المؤقت عن الأرض، أو عن فشل الإدارة في تدبير المرحلة، وإنما يتجاوز هذا المعنى ليرمز إلى البلاد التي ما تزال في فجر استقلالها؛ إذ لم يمض على خروج المغرب من مرحلة الاستعمار إلا عقد ونصف، ولم يمض على نضال أبنائه لطرد الأجنبي من أرضهم، ولم يمر على أحلامهم في بناء وطن خاضع لإرادة أبنائه وضامن لمصالحهم سوى فترة قصيرة، ومع ذلك تزحف على بلدهم أزمة هيكلية حادة، ويغشاها ليل جديد (مؤقت) يسحب عليها أذياله السوداء.

ولا شك أن هذا المعنى تضميني، لا يكتسب وجوده إلا من خلال التأويلات التي ينسجها القارئ، والتي تسمح بها حيثيات نص الكاتب، والتي عمد إليها المؤلف كفنية تسبغ على مكتوبه غلالة الشاعرية وتدفق الإيحاءات.

2–4– ردود الفعل إزاء هذا الكسوف تختلف هي بدورها بين شخصية وأخرى من شخصيات الرواية، مما يعطي أيضا مستويات للتفاعل، ليس مع الظاهرة الطبيعية وحدها، ولكن كذلك مع دلالاتها المجازية التي يحيل عليها التأويل وقراءة الرموز.

إن الفئات الشعبية من الناس تهتم بموضوع الكسوف لهنيهة ويصيبها الهلع لحظة بسببها، كما تستخرج منها موعظة أخلاقية عامة وغامضة، ولكنها حين تعود الشمس إلى إشراقها العادي يزول خوفها وتنصرف إلى مشاغلها اليومية، وكأن شيئا لم يكن :"نطق شيخ وقد ترك عمله ليقف على باب دكانه يتطلع إلى السماء :

–سبحان الله، حينما تظلم الأرض في الضحى فذلك إنذار من الله للقلوب العاصية...

قالها وعاد إلى عمله يرفع المطرقة وينزل بها على السندان" (فصل 19، ص 185).

أما الإداري (قاسم) فقد اكتفى بمعالجة القنوط والضيق اللذين أحس بهما بسبب الظلام بالخروج لاستنشاق الهواء النقي في خارج المكاتب. ولكن ردود الفعل التلقائية هذه لا تظهر في تعاليق كل من عبد الهادي (مناضل سياسي)، حين يلتقي صدفة بصديق قديم اسمه اليوسي (مناضل نقابي)، فيكون اللقاء بينهما كما يلي :

"وجها لوجه وجد نفسه مع اليوسي كأنما كانا على موعد.

– أفنلتقي ساعة الكسوف و لم نلتق ساعة الإشراق؟

هتف اليوسي وهو يحتضن عبد الهادي. أجاب الصديق الذي تفصله عن صديقه المسافة التي تفصل الرباط عن الدار البيضاء :

– الكسوف ظاهرة سريعة الزوال. الشمس لا تطيق عربدة الأرض حينما تخرج قليلا عن مدارها، سرعان ما تنفلت من طريق العربدة لتعود إلى مسارها مضيئة مشرقة..."؛ (فصل19، ص 184 ـــ 185).

إن تفسير ظاهرة الكسوف هنا ليس علميا تماما، لأن الأرض والشمس خلال الكسوف لا تخرج أي واحدة منهما عن مدارها الطبيعي؛ ولا شك أن المؤلف لا يقصد هنا تفسير الظاهرة الطبيعية وإنما يتوخى التنصيص على دلالته المجازية المطاوعة لتفسير الأزمة الاجتماعية التي صاحبت زمن الكسوف، والرأي الذي تبديه الأطر الملتزمة سياسيا في هذه الأزمة. وتظهر، من خلال هذا التعليق، قناعة الرجلين

بأن التخلي عن القيم السياسية السليمة على الأرض (احترام القيم الديمقراطية وإرادة الشعب) هو الذي تسبب ـــ في نظرها ـــ في لحظات الظلام والأزمة، وأن العودة إلى ما تقتضيه مصلحة البلاد مسألة ضرورية لا محالة للخروج من الأزمات وضيق الحال.

---

*- أستاذ بالمركز التربوي الجهوي - فاس

1-بعد دخول المغرب مرحلة المصالحة الوطنية وتأسيس حكومة التناوب التي احتلت خلالها الأحزاب الوطنية عددا من الحقائب الوزارية، طبعت هذه الرواية من جديد ضمن الأعمال الكاملة للأستاذ عبد الكريم غلاب، نشر وزارة الثقافة، الرباط ، سنة 2001؛ كما توجد نسخة منها ضمن الأعمال الكاملة للمؤلف على موقعه على شبكة الإنترنيت.

2-أنظر : عبد الواحد الشاوي، حزب الاستقلال (1944 ـــ 1982)، عيون المقالات، الدار البيضاء، 1990.

3-جورج سالم، تاريخ الرواية الحديثة، عويدات، بيروت، 1982، ص. 159.

4-" بخلاف عناوين روايات عبد الكريم غلاب السابقة، وهي "سبعة أبواب" و"دفنا الماضي" و"المعلم علي" ذات الشفافية والمباشرية الواضحتين، فإن العنوان "صباح ويزحف الليل" يكتسي كثافة قوية تتطلب من القارئ كفاية تفكيكية وتأويلية خاصة." رشيد بنحدو، بلاغة الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب ، مجلة فكر ونقد، عدد 11، سبتمبر 1998.

5-ليس التشاؤم من الكسوف، وتفسيره الأسطوري الساذج مسألة جديدة، فقد كتب أحد نظامنا في بداية ق 20 أرجوزة يقول فيها :

دلالة الكسوف في برج الأسد تنبي بفتنة وحرب في البلد
مع وباء في الوحوش المؤذية وتحدث الأوجاع في البادية
ويحدث الشغب في الأجناد وثورة الغوغاء في البلاد
ويكثر القطاع واللصوص وذاك عند الحكما منصوص